المتنبي (٣٠٣هـ-٣٥٤هـ)

"وتعظم في عين الصغير صغارها

وتصغر في عين العظيم العظائم"

- المتنبي -

أبو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبدالصمد الجعفي الكندي. سيد شعراء القرن الرابع الهجري ويعده البعض أكبر شعراء العربية، ومن أبرز شعراء العالم. ينتهي نسبه إلى كَهْلان من اليمن، وهي قبيلة عربية ذات فصاحة ولسن.

أسرته:

ولد المتنبي سنة ٣٠٣هـ في حي كندة بالكوفة، وأرضعته امرأة علوية، وكانت أسرته رقيقة الحال، ولعلّ رقة حال أسرته كانت دافعًا قويًا إلى تكسبه بالمدح وإثبات ذاته المتفوقة.

أما سبب تسميته بالمتنبي فقد قيل فيه أمور كثيرة، أصحها أنه ادعى النبوة في بداية حياته إلى أن سجن واستتيب.

نشأته:

نشأ بالكوفة، وكان يختلف أول أمره في التعليم إلى كُتّاب فيه أولاد الأشراف من العلويين. وبدأ بتعلم العربية لغة وإعرابًا وشعرًا. وارتحل إلى البادية طلبًا لفصاحة القبائل العربية. فاكتسب مِنْ مجالسها شيئًا من الفصاحة والبلاغة حين جالس الأعراب وشافههم. ولكن لم يطل به ذاك المقام فعزم سنة ٣٢٠هـ على الرحيل إلى بغداد. وواصل مسار رحلته مصعدًا من بغداد إلى ديار ربيعة بين النهرين، ثم إلى الموصل ونصيبين ورأس عين. وانحدر بعد ذلك إلى بادية الشام، فقيل: ادعى النبوة وتبعه خلق كثير من البدو، فخرج إليه لولو أمير حمص فقبض عليه وسجنه، وتضاربت حول ذلك الروايات، ولكن الثابت أنه أودع السجن في سنة ٣٢١هـ. وكان مستخفًا بالسجن أول أمره، ولكن لمّا طال مقامه ولم يُطلق سراحه أرسل قصيدة يستعطف فيها الأمير الذي أودعه السجن. فخرج من السجن وقد لصق به لقب المتنبي.

وُصف المتنبي بأنه كان رجلاً ملء العين، تام الخلقة، لا يخلو من جفاء وخشونة. وعرف بالجرأة والإقدام والبعد عن ضعف النفس وخورها. ولعلّ حياته الأولى في البادية كان لها أثر في صفاته وأخلاقه. ومن مشهور قوله خطابه لنفسه -حاضًا إياها على الجرأة والمخاطرة-:

ردي حياض الردى يا نفس واتّركي

حياض خوف الردى للشاء والنَّعَمِ

أما بيته:

الخيل والليل والبيداء تعرفني

والسيف والرمح والقرطاس والقلمُ

فكان ولايزال من الأبيات السَّيارة، وهو أشهر أبيات المتنبي، بل أشهر بيت في الشعر العربي على الإطلاق.

أدت حياة الفقر التي نشأ المتنبي عليها إلى اتخاذه الشعر حرفة يأكل بها الخبز. ويكشف شعره أبدًا إصراره في طلب الرزق:

ضـــــاق صـــــــدري وطال في طلب الرز

ق قـــيـــــامي وقل عنـه قـــعـــــودي

ومن أجل هذا الرزق، كانت صفاته وأخلاقه تتشكل في اتصاله بممدوحيه. فلم يكن شاعرًا يمدح فحسب وهو في بلاط سيف الدولة، بل كان فارسًا يخوض غمار الحروب، ويصفها أجمل وصف.

إن من أبرز صفات المتنبي ـ التي انعكس أثرها على أخلاقه ـ طموحه؛ طموح لا تحده حدود، طموح جعله لايدري ما يريد من الأيام: تارة يطمح في ولاية يدير أمرها فيكون له عِزٌّ وجاه وسلطان، وأخرى يطمح في مجهول لايستطيع له تحديدًا. لذلك شقي المتنبي بطموحه كثيرًا.

وكان في أخلاق المتنبي ترفع عن حياة أهل عصره، وما تمور به من تهافت على اللذات والشهوات. فأخلاقه محمودة وسيرته خالية من الموبقات.

ولعل الإحساس بالعظمة الذي جعل ذاته المتفوقة تبلغ حدًا مرضيًا ـ كان من صفات المتنبي التي خاض فيها الباحثون كثيرًا. رأى بعضهم أنه يعاني من جنون العظمة، أو من عقدة نرجسية. ورأى آخرون أن هذا الإحساس بالعظمة استجابة طبيعية لذكائه وتفوقه. وزاد من إحساس المتنبي بذاته المتفوقة أن حساده كانوا له بالمرصاد، فربط مدحه بهجائهم:

إن أكن مُعْجَبًا فعجبُ عجيبٍ

لم يجد فوق نفسه من مزيد

أنا تِربُ الندى وربُّ القوافي

وسمام العدا وغيظ الحسود

أنا في أمة تداركها الله

غريب كصالح في ثمود

لم يكن المتنبي يعرف المداراة، وتلك صفة فتحت عليه أبواب الأذى، وأكسبته العداء. لم يكن يصانع أو يجامل. وقصصه مشهورة في هذا المقام في مواقفه مع أبي فراس، وابن خالويه، والمهلبي، والصاحب بن عبَّاد، وغيرهم كثير. أصابوه بكثير من الأذى إذ لم يصانع في أمورهم، فلو صانع لعاش في حمى وأمان.

ومن أنبل مقومات شخصيته إخلاصه في حبِّه ووفائه لمن أحب:

خلقتُ ألوفاً لو رجعت إلى الصبا

لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

وكان هذا الوفاء نابعًا من كريم خلق وصدق مشاعر، ومن ثم فهجاؤه الأمراء الذين سبق أن مدحهم من قبل لم يكن لعدم إخلاص وود، إنما كان احتقارًا لهم، وازدراءً ومراجعة للنفس.

ولعل من سلبيات شخصيته مزاجه المتقلب، وتناقضه في بعض المواقف. فلم يكن من الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس. ولم يكن يخلو من مزاج متشائم، مرده سوء الظن بهم:

غـيــري بأكــثــر هذا الناس ينخــدعُ

إن حــاربوا جـبنوا أو حـدثوا شـجـعـوا

اتهم المتنبي بالبخل، إلا أنه لم يكن بخيلاً، ولكنه صاحب فلسفة تنبع من معاناة حقيقية، أدرك خلالها قيمة المال وأثره البالغ في الحياة. ليس المال لديه مطلبًا لذاته، ولكنه عون لدفع عاديات الحياة:

ومـا رغـبـتي في عـسـجـد أَسـتـفـيـده

ولكنهــا فــي مــفــخــر اســتــجـدهُّ

أثر علمه وثقافته على شعره:

يُظهر ديوان المتنبي فيضًا من المعارف المتنوعة المشارب. فشعره يبين عن شاعر عالم ومثقف، ولكنه لم يكن ممن يتعمدون إثقال الشعر بهذه المعارف، التي تُخرج الشعر عن عفو الخاطر، ولمحات الإحساس. فالمتنبي كان كثير الدرس والاطلاع، شهر بارتياده دكاكين الوراقين وملازمته لها. كما لازم أشهر علماء عصره من اللغويين والأدباء كالزجَّاج، وابن السرَّاج، والأخفش الأصغر، وابن دُريد، وأبي علي الفارسي، وجلس إلى نفطويه، وابن درستويه. وأخذ عنهم جميعًا. وكان -بجانب حفظه القرآن الكريم- قد أفاد فصاحة ولسنًا حين شافه الأعراب وجالسهم في البادية.

فمن الناحية ثقافته التاريخية، نجد أن ديوان المتنبي يعكس صورة للأوضاع التاريخية والصراعات السياسية التي كانت دائرة في عصره. كما أن لثقافته الدينية والفلسفية أثر واضح في شعره، وكان ذلك من مخرجات عصره الذي كان

ثرياً بالمذاهب الدينية والفكرية الفلسفية. كما تأثر المتنبي بالقرآن الكريم وألفاظه العظيمة، وبدا ذلك جلياً في كثير من أبياته.

رحلاته:

خرج المتنبي من السجن في حمص بعد أن عرف جور الزمان وكيد الأعداء. فلحق بالتنوخيين في اللاذقية وأقام عندهم حينًا من الزمان. وتوثقت صلته بأبناء إسحاق التنوخي محمد والحسين ونظم فيهما قصائد من أجمل شعره.

ارتحل بعد ذلك إلى الكوفة وأمضى زمنًا يشتغل بالعلم، راغبًا عن مدح الناس أو التعرض بشعره لأحداث تلك الفترة. ثم خرج في ٣٢٦هـ من الكوفة ـ متوجهًا إلى الشام للمرة الثانية، ثم إلى عدة مدن في الشام حتى استقر في عام ٣٢٨هـ في رحاب بدر بن عمار. وكان بدر عربيًا حلو الشمائل، فوجد المتنبي في بلاطه شيئًا من الاستقرار، فابتهجت نفسه وتجدد أمله. يقول:

أحلماً نرى أم زماناً جديداً
أم الخلق في شخص حيّ أعيدا
تجلى لنا فأضأنا به
كأنا نجوم لقين سعودا

ولكن المقام لم يطب له كل المطاب؛ فأعداؤه وحساده سعوا لإفساد ما بينه وبين أميره، وأغروا به الشعراء ليكيدوه بألسنتهم، وبدأ الأمير ينصرف شيئًا فشيئًا عنه، بعد أن كان المقدم لديه. ولعل اعتداد المتنبي بذاته، وعدم تمرسه بحياة القصور ودسائسها، كان مما وسع الشقة بينه وبين أميره. فخرج من بلاط

بدر قاصدًا دمشق، ونزل بجبل جرش عند أبي الحسن علي بن أحمد الخراساني، وكانت بينهما مودة واستظل بحماه، ومدحه بقصيدة قال فيها:

لا افتخار إلا لمن لا يضامُ

مدرك أو محارب لا ينامُ

وخرج قاصدًا أنطاكية عام ٣٣٤هـ، وبها أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد الخصيبي. ووصله في هذه الفترة كتاب من جدته تسأله السير إليها وتبثه شوقها، فقصد الكوفة، ولكن حيل بينه وبين دخولها. وتوفيت جدته فرثاها بقصيدته المشهورة:

ألا لا أرى الأحداث حمداً ولا ذمّا

فما بطشها جهلاً ولا كفها حلمًا

انحدر المتنبي إلى دمشق، وكان سيف الدولة قد صد الروم واستولى على أكثر الشام. وصار ملء السمع والبصر، وكان أبو العشائر والي سيف الدولة على أنطاكية قد مهد للمتنبي الانتقال إلى بلاط سيف الدولة بحلب. وكان سيف الدولة يحتاج شاعرًا مثل المتنبي على كثرة شعراء بلاطه؛ شاعرًا يصور تلك المرحلة من البطولات التي كانت تعيشها الأمة العربية. فوجد كلٌّ منهما بغيته في صاحبه، فكتب المتنبي أجمل شعره - الذي يمثل ديوانًا خاصاً هو سيفيات المتنبي - كله أو جله خلال إقامته بالشام. لم يمدح أحدًا غيره خلال هذه الفترة، ولم يبخل الأمير على شاعره، ولكن ذات الشاعر القلقة وطموحه الذي لا يُحَدُّ، فضلاً عن

أسباب أخرى أسهب الرواة في ذكرها، جعلت المتنبي يشد الرحال من حلب قاصداً دمشق سنة ٣٤٦هـ. واتجه إلى الرملة في فلسطين ومدح الأمير ابن طغج عامل كافور، الذي زين له الرحلة إلى كافور.

قصد المتنبي مصر مؤملاً أن يجد في حضرة كافور ما لم يجده لدى سيف الدولة. ولكن كافوراً كان سياسياً داهية وأديباً بارعاً، فأدرك مقاصد المتنبي وجعله يتأرجح بين اليأس والأمل. وتمثل هذه المرحلة ديواناً شعرياً عُرف بالكافوريات، من أشهره قصيدته التي مطلعها:

عيد بأية حال عدت يا عيد؟

بما مضى أم لأمر فيك تجديد؟

وهي آخر قصائده بعد أن يئس مما كان يأمله من كافور. ففر من مصر بعد أن كتب قصيدة الهجاء الخالدة في كافور.

• الديوان وأغراضه الشعرية •

الديوان:

يحوي ديوان المتنبي خمسة آلاف وأربعمئة وتسعين بيتاً في إحصاء الواحدي. وقد رتب المتنبي ديوانه بنفسه، وقرأه تلاميذه عليه وتدارسوه معه. وما ظفر ديوان شاعر في القديم والحديث بما ظفر به ديوانه من العناية والشرح؛ فقد ذكر له صاحب كشف الظنون نيفاً وأربعين شرحاً.

وقد عكف على ديوانه كثير من الأدباء والنقاد منذ حياته إلى يومنا هذا، ولذلك قال ابن رشيق في حقه: إنه مالئ الدنيا وشاغل الناس. كما رُزق شعر أبي الطيب قبولاً ما حظي به شعر شاعر سواه؛ ففضلاً عن الجدل الذي أثاره ويثيره في مختلف المجالس الأدبية بالأصقاع كافة بين الأدباء والنقاد، قد نجد لشعره ذيوعًا حتى بين العوام. والقصة التالية تدل على هذا الذيوع: قال أحد أصحاب ابن العميد: دخلت عليه يومًا قبل أن يتصل به المتنبي، فوجدته واجمًا -وكانت قد ماتت أخته من قريب- فظننته واجدًا لأجلها، فقلت له: لايحزن الله الوزير ما الخبر؟ قال: إنه ليغيظني هذا المتنبي واجتهادي في أن أخمل ذكره. وقد ورد عليَّ نيف وستون كتابًا في التعزية ما منها إلا مصدّر بقوله:

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر

فزعتُ فيه بآمالي إلى الكذبِ

حتى إذا لم يدع لي صدقُه أملاً

شرقتُ بالدمع حتى كاد يشرق بي

• الأغراض •

المدح:

اشتهر بالمدح، وله ١١٢ قصيدة في هذا الغرض، وأشهر من مدحهم سيف الدولة الحمداني وكافور الإخشيدي، ومدائحه في سيف الدولة وفي حلب تبلغ ثلث شعره أو أكثر ، وقد استكبر عن مدح كثير من الولاة والقواد حتى في حداثته. ومن قصائده في مدح سيف الدولة:

وقفت وما في الموت شكٌّ لواقف

كأنك في جفن الرَّدى وهو نائم

تمر بك الأبطال كَلْمَى هزيمةً

ووجهك وضاحٌ، وثغرُكَ باسم

تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى

إلى قول قومٍ أنت بالغيب عالم

الرثاء:

للشاعر رثاء غلب فيه على عاطفته، وانبعثت بعض النظرات الفلسفية فيها.
وقال يرثى جدته:

أحِنُ إلى الكأس التي شربت بها

وأهوى لمثواها التراب وما ضمَّا

بكيتُ عليها خِيفة في حياتها

وذاق كلانا ثُكْلَ صاحبه قِدما

أتاها كتابي بعد يأس وتَرْحَة

فماتت سرورٌ بي، ومِتُ بها غمَّا

حرامٌ على قلبي السرور، فإنني

أَعُدُّ الذي ماتت به بعدها سُمَّا

الهجاء:

هجاء المتنبي قليل لايتعدى مئتي بيت. ونَفَسُه الشعري قصير فيه، وأغلبه

مقطوعات. وأطول هجاء له قصيدة في كافور، وأخرى في إسحاق بن كروس. وأشهر أهاجيه في كافور:

عيد بأية حال عدت يا عيد؟

بما مضى أم لأمر فيك تجديد؟

وفيها:

من علَّم الأَسْوَدَ المخصيّ مكرمة؟

أقومه البيض أم آباؤه الصِّيد؟!

أم أذنه في يد النخاس دامية؟!

أم قدره وهو بالفلسين مردود؟!

الوصف:

أجاد المتنبي وصف المعارك والحروب البارزة التي دارت في عصره، وخاصة في حضرة سيف الدولة وبلاطه، فكان شعره يُعَدُّ سجلاً تاريخياً. كما أنه وصف الطبيعة، وأخلاق الناس، ونوازعهم النفسية، كما صور نفسه وطموحه. وقد قال يصف شِعب بوَّان، وهو منتزه بالقرب من شيراز:

لها ثمر تشير إليك منه

بأشربةٍ وقفن بلا أوان

وأمواهٌ يصِلُّ بها حصاها

صليل الحَلى في أيدي الغواني

إذا غنى الحمام الوُرْقُ فيها

أجابته أغانيُّ القيان

الغزل:

لم يخص المتنبي هذا الفن بقصيد وإنما كان يأتي في مطالع قصائده مما دفع بعض النقاد إلى القول إنه غليظ القلب لايحب، وليس كذلك. ولعل طغيان النظرة التي حاول أن يشيعها في شعره من عنف في الرجولة، وانشغال بمعالي الأمور، والأحداث الجسام التي مرت به، هي التي أخفت بريق الغزل في شعره فبدا باهتًا متكلفًا:

وكان أطيب من سيفي معانقة

أشباه رونقه الغيد الأماليد

لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي

شيئًا تتيمه غيد ولا جيد

ولكن هذا العنف يخفي وراءه نفسًا رقيقة تحس الجمال وتنفعل به، يقول:

أصخرة أنا؟ مالي لا تحركني

هذي المدام ولاهذي الأغاريد؟!

الفخر:

لم ينسَ المتنبي نفسه حين يمدح أو يهجو أو يرثي، ولهذا نرى روح الفخر شائعةً في شعره.

وإني لمن قوم كأن نفوسهم

بها أنَفٌ أن تسكن اللحم والعظما

وكثيرًا ما كان يفخر بشخصه مُعليًا شأن ذاته المتفوقة:

أمِطْ عنك تشبيهي بما وكأنه

فما أحد فوقي ولا أحد مثلي

الحكمة:

اشتهر المتنبي بالحكمة وذهب كثير من أقواله مجرى الأمثال، لأنه يتصل بالنفس الإنسانية، ويردد نوازعها وآلامها. ومن حكمه ونظراته في الحياة: والتي تدل على الاطلاع والثقافة. ومن أمثلتها ما وافق به أرسطو، إذ قال الأخير: "إذا كانت الشهوة فوق القوة كان هلاك الجسم دون بلوغها".

وقال المتنبي:

وإذا كانت النفوس كبارًا

تعبت في مرادها الأجسامُ

وقال أرسطو: "علل الأفهام أشد من علل الأجسام" وقال المتنبي:

يهون علينا أن تُصاب جسومنا

وتسلم أعراض لنا وعقولُ

وحكمة المتنبي مبثوثة في ثنايا قصائده؛ قد تأتي في بيت أو في نصف بيت ومن أمثلة ذلك:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى

عدواً له ما من صداقته بُدُّ

وفي نصف بيت:

"أنا الغريق فما خوفي من البلل"

"مصائب قوم عند قوم فوائد"

"وخير جليس في الزمان كتاب"

مقتله:

كان المتنبي قد هجا ضبة بن يزيد الأسدي العيني بقصيدة شديدة، أفحش فيها القول وأقذع، إذ قال المتنبي:

ما أنصفَ القومُ ضبّه

وأمّه الطُرطُبَّه

فلا بمن مات فخر

ولا بمن عاش رغبه

فلما كان المتنبي عائدًا يريد الكوفة، وكان في جماعة منهم ابنه محسّد وغلامه مفلح، فلقيه فاتك بن أبي جهل الأسدي، وهو خال ضبّة، وكان في جماعة أيضًا، فأراد المتنبي أن يهرب فقال له ابنه وقيل غلامه: يا أبه! وأين قولك:

الخــيل والليل والبــيــداء تعــرفني

والســيف والرمح والقــرطاس والقلم ؟!

فقال له: قتلتني يا ابن اللخناء!

ثم قاتل حتى قتل هو وابنه محسّد وغلامه مفلح، وكان ذلك في السابع والعشرين من رمضان سنة ٣٥٤هـ، بالنعمانية بالقرب من دير العاقول غربيّ بغداد.

وفي القصيدة التي كانت سبب هلاكه، يقول ابن العديم: "ما للمتنبي شعر أسخف من هذا الشعر، ولا أوهى كلاماً، فكان على سخافته وركاكته سبب قتله وقتل ابنه، وذهاب ماله".